قيصر الجميل

دولاكروا

أساتذة الفن

منشورات دار المكشوف

قيصر الجميّل

دولاكروا

أساتذة الفنّ

منشورات دار المكشوف

طبع من هذا الكتاب ١٢٥٠ نسخة

الطبعة الاولى ، ١٩٤٥

توطئة

أأزيد القارىء معرفةً بالجميّل ، وليس بين ذوي النور في لبنان وحول لبنان من لا يذكر الشيخ كلما انسجمت ألوانٌ بألوان ، وكلما تجلّت بالجمال الوجوهُ ومالت بالاناقة قدودُ الملاح ، وكلما اطلت من قرانا المعلقة لؤلؤة كالقيصرية ترصّع بالبركات اعناق الجبال . . .

ام احدّث عن فنه ، ولعصبة محظوظة ، انا منها ، ان تشهد كل يوم في محترفه الخصب ولادةً عبقريةً لمولود جديد ، من ابي العلاء ، الى بيتهوفن ، الى وجه المسيح ، او لمشهد من حالات لبنان المتعددة الالوان ، والاشكال ، والابعاد ، تشرحها ريشته الموهوبة بالطريقة التي تتذوقها نفس الانسان ، فنرى فيها اكثر واجمل واعمق مما نرى في الاصل ، دون ان نبتعد عن ذلك الاصل الذي احببناه . . . وكم ندلج الى تلك الزاوية العاليـــة للتمتع بوجه جذاب ، او غير وجه ، وعند قيصر من ذلك الشيء الكثير . . .

ام اتكلم عن شخصيته ، وهو الذي علّم الكثيرين ، قبل مزج الانوار بالاظلال ، مزجَ النبل بالتواضع ، والعلم الصحيح بالفن الخالص ، والثقافة العميقة بظرف المشيخة التقليدي . . .

ام اكتب عن دهلاكروا ، وقيصر يحتذي في تعريفه نقلة النسر

من مطل الى مطل ، ومن قمة الى قمة ، ليلوّن من مجموعة حياته وتأثراته ونتاجاته صورة واحدة متناسقة فيها الاهمّ من كل شيء .

ام اترك هذا وذاك لاقول كلمة موجزة في اهمية العمل الذي يقوم به المؤلف مع فئة من رفاقه الملهمين المؤمنين بالخير ، الساعين اليه ، وهم قليلون ، على كثرة الملهمين تحت هذه السماء ! فهو من اولئك الذين يعرفون عن يقين ان السعي لبلوغ مستوى الحضارة الذي بلغه الوجه الآخر من الارض يجب ان يبدأ بالتحضير الصحيح . وليس اقومَ في ذلك من انارة تلك الناحية الحلوة من النفس البشرية ، ناحية التحسس بالجمال ، التي بدونها لا يمكن ان تحيا الضمائر ، وتنبت المناقب ، وتتهذب الاذواق ، والتي بدونها لا تقوم نهضة في الاجتماع ، او في التفكير العلمي والفلسفي ، او في السياسة والاقتصاد ، او في العمران ، او في اي حقل من حقول الخير والحق والجمال . لذلك تراه دائم السعي لبلوغ تلك الغاية ، عن لذة ، وعن عقيدة ، وايمان ، فهو لا يتعب ولا يمل ! وكأني به قد استلهم ، من صورة دانتي وفرجيل لدهلاكروا ، موقف ذلك الشاعر المرعوب على شطوط بحيرة اشيرون ، بين الارواح التي تلسعها موجات النار لانها لم تفعل شيئاً في الحياة . . . فخشي تلك الموجات التي قلّ من يخشاها في هذا الشرق الكسول ، وجعل كل ثانية من حياته مثمرة الى ابعد حد ، فهو المعلم الساهر على صقل المواهب وتنميتها وتوجيهها توجيهاً مخلصاً لمجد لبنان وخير الانسانية ، يتحدث عن الموهوبين من طلابه كما يتحدث الوالد عن بنيه المتفوقين . وهو الفنان المنتج الذي يعمل على ايجاد التوازن الاكمل بين الطابع اللبناني الصافي ، او النكهة

اللبنانية ، والكلاسيكية الاوروبية الفنية ، فلا نكون مقلدين للغرب ، ولا « متجبجبين » منـــه ! وهو من المساهمين الاولين في تأسيس الاكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة ، تلك التي تُعد بحق حجراً من اوسخ حجارة الزوايا في بناء المستقبل الصحيح المرتقب . وهو اخيراً مؤلف يفتتح بهذا الكتاب سلسلة جديدة تحمـل الينـا ، باقرب الاساليب واعذبها ، عباقرة الفن العالميين الذين لا يزالون ، الى الآن ، نكرات او اشبه بالنكرات عند الكثيرين حتى مـن طلاب المعرفة في هـذه البلاد !

فنحن اذن ، بفضل قيصر ودار المكشوف ، عـلى موعد مع رافائيـل ، ودافنشي ، ورنوار ، ودافيد ، وكثيرين غيرهم ، في المستقبل القريب ان شاء الله .

رشدي معلوف



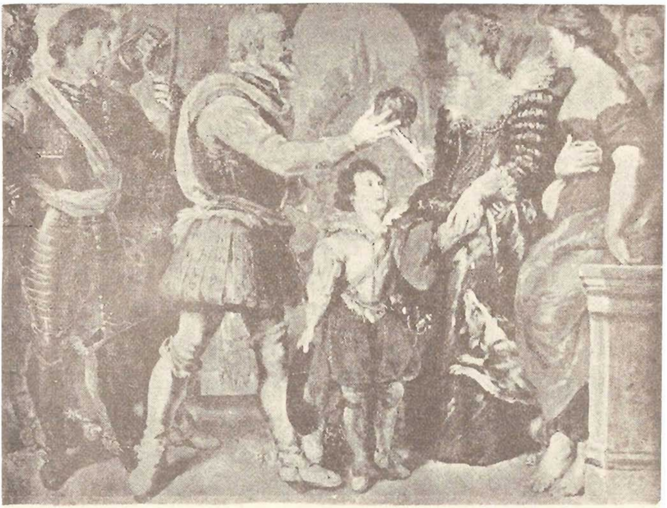
الحرية تقود الشعوب



دانتي وفرجيل ، بريشة المؤلف نقلاً عن ده كروا



تدريب اخيل على القتال



هنري الرابع وماري دي مديسيس نقلاً عن روبنس



فارس مراكشي



حصان جامح



السيد المسيح في حضن امه



تربية العذراء

عصر ده لاكروا

ان هذه المرحلة البراقة من طريق الفن الطويلة ، التي انطلقتها ، من شاطىء المتوسط الغربي ، ادمغة رافائيل ، ميكل انج ، دافنشي ، تيسيان وفرونيز ، واناملهم المبدعة ، والتي تابعت سيرها وتطورها ثلاثمائية عام بأحاسيس انسانية ، وشعائر طبيعية ، مع رجال نابغين امثال روبنس ، واتو ، فلاسكيز ، رامبرانت ، فرانس هالز ، وفراغونار ، وبلغت تقاليدها النّيرة آخر المفرق ، قد وصلت اليه منهوكة تعبة ، لا لتسقط ميتة ، بل لترتاح فترة من الزمن ، تستجمع خلالها قواها ، ثم تنهض فتثب وثبتها الجديدة مع البارون غرو ، وتسمو الى الذروة مع جريكو وده لاكروا .

ان المذهب الكلاسيكي الجديد ، مذهب الجمال الامثل الذي انتشر على اثر اكتشاف حفريات هركولانم وبومبايي ، قد ساهم

بنشره فئة موهوبة من كتّاب اوروبا ، ساعدهم في مهمتهم تسلُّم روما قيادة الفن لانغماس باريس في الثورة ، فبثت في انحاء اوروبا البدعة الجديدة ، ورجع الاكاديميسم الى البيت الذي خرج منه ، ورجعت روما الى سابق مجدها لتقبض على الدفة وبدير ربابنتها الفن العالمي .

عرقل « مذهب الجمال الامثل » سير الفن الحر بتحديده المواضيع واساليب التدريس . ولولا عناد بعض الفنانين واخلاصهم امثال بوشه وفراغونار ولموان ، الذين عرفوا لحسن طالع المدرسة الفرنسية ان يتجنبوا التيار ويصمّوا آذانهم عن النظريات الجديدة ويتابعوا رسالتهم ، لسيطر دافيد سيطرة تامة على الفن الفرنسي .

استهوت هذه الفئة الاضواء المسرحية والوان السجاد الشرقي ، وتنبهت الى ارتعاشات الانوار وانعكاساتها على الاجساد والملابس ، واهملت عمداً الاسترسال في درس العضلات ، فحافظت على التراث الفرنسي الشهواني المتزن الذي كانت التعاليم الاكاديمية قمينة بالقضاء عليه لو كتب لها النصر .

في هذه الحقبة المضطربة سافر دافيد الى روما لاتمام ثقافته الفنية . وبالرغم من تأكيداته لكوشان بانه سيحافظ على الروح الفرنسي وبانه لن يضعف امام البدعة التي بعثتها حفريات هركولانم وبومبايي ، لم يتمكن من الصمود في وجه التيار ،

فقد تعرف في روما الى الطبقة المثقفة التي اعتنقت مذهب الجمال الامثل وخلقت جواً خمَّرت فيه العقول بالنظريات الجديدة ، فانضم الى صفوفهم واصبح من زعماء الحركة المرموقين .

ارسل دافيد الى صالون باريس لوحة كبيرة تمثل « يمين هوراس » افرغ فيها خلاصة نظرياته الجديدة ، وحقق اجساداً « لم يخلق اليونان ولا النهضة الايطالية اجمل منها » ، وبرهن عن معرفة عميقة باسرار الجسد ، وعن تلاعب بارع بتوزيع الانوار والظلال ، واحساس باللون دون ما تنوع وغنى ، وبراعة فائقة في المهنة ، ودقة وقوة في الرسم . فكان لهذه اللوحة اثر كبير في الفن الاوروبي عموماً والفن الفرنسي على الاخص .

لما هدأت الثورة في باريس وتسلمت المدينة الجميلة مجدداً دفة الفكر والذوق ، غزا الطلاب محترفات دافيد وتلاميذه وكلهم يبشر بالمذهب الجديد ، ويعلِّم الجمال الامثل ، فتحولت هذه المحترفات الى هياكل لعبادة التماثيل اليونانية تشع فيها الشموع على رؤوس كهان مؤمنين تمكنوا من توجيه الرأي العام حقبة من الزمن دون ان يتمكنوا من عزل التعاليم المضادة في زاوية مظلمة ، وذلك لعدم وجود نماذج تصويرية من الفن اليوناني ، فالنماذج التي لديهم كلها تماثيل وعمارات .

اما فن العمارة الكلاسيكي فقد نشره في انحاء اوروبا البنَّاآن

« فونتين وبرسيه » وحوّراه تحويراً يلائم سير الحياة العصرية وذوق السكان ، فوصل صيتهما الى القيصر اسكندر ، فطلب اليهما اطلاعه على كل تصاميمهما التي كان يظهر دائماً شديد اعجابه بها .

وبينا القصور تشاد في انحاء اوروبا مطبوعة بطابع الامبراطورية ، فترفع بنايـة في بلاد شمالية ، لا ترى وجه الشمس ، على نموذج بناية في بلاد شمسها دائمة الاشراق ، كان المثّالان كانوفا وثورفالدسن ينشران الروح الاكاديمية ، ويزّينان القصور بالتماثيل المطبوعة بطابع الجمال الامثل . وساهمت الحروب الطويلة التي أنهكت اوروبـا وافقدتها نخبة شبابهـا وحصرت همّ الاحياء بتحرير بلادهم وطرد المجتاح ، ساهمت في انتشار التعاليم الاكاديمية ، فتبنّتها الحكومات وشجعت المبشرين بها . ولا يزال هذا شأنها الى اليوم .

الفكر لا يستعبـد ، والفن ابن الفكر المتجسد بالالوان والاشكال . فبالرغم من سيطرة الحكومات على الفن ، وتبنّيها التعاليم الاكاديمية ، ظل في اوروبا فنانون لم يعتنقوا المذهب الجديد . واثرت الثورة الفرنسية بمواضيعها الوطنية الواقعية على دافيد نفسه وعلى تلميذه المختار غرو ، فصدّفا عن مذهب الجمال الامثل الذي بشرا به وعلّماه ، واخذ « برودون » بالشعر فلقّب بكوريج فرنسا . اما في اسبانيا فكان « غويا » يحقق بعزلة تامة لوحات عبقرية تحت تأثير خيال مضطرب هائج ، وفي انكلترا يحافظ ريبورن ، ولورنس ،

على حرمة المدرسة الانكليزية وتراثها بالوانها الشفافـة الدافئة .
اما الفنانون الموهوبون الذين اغراهم الجمال الامثـل فلم يلبثوا ان شعروا ببرودته فانتقضوا عليه وتحرروا من عبوديته ، فحدث من جراء ذلك اضطراب في التفكير واصطراع بين النظريات امتـد من فرنسا الى المانيا وانكلترا ، وكان له تأثيره المباشر في تاريخ الفن .

خلال القرن الثامن عشر كان كل عمـل فني يجد متسعاً في الابنية التي تشاد ، فيمتزج بهندسة البناء والمفروشات والزخارف . وكانت التماثيل العارية ، بالرغم من احتفاظها بطابع جمالي ثقافي ، يظهر فيها ذوق العصر بجلاء ، بعكس لوحات القرن التاسع عشر وتماثيله التي ليس لها ان تطمح الى اكثر من جدران المتـاحف ، فتُحفظ عليها نماذج ، لهـا قيمتها التاريخية والثقافية ، فتهدىء قليلًا من حدة الثائرين على الجمال الكلاسيكي ، وتذكرهم حرفة اهملوها حتى كادوا ان ينسوها .

اما في القرن التاسع عشر فلم تسيطر الاكاديمية سيطرة مطلقة على فن العمارة ، فبين النصُب المأخوذة عن اليونان ارتفعت ابنية مستوحاة من عصر الانبعاث والقرون الوسطى .

تتطلب مزاولة الفنون الجميـلة كالتصوير والنحت والعمارة ، عدا المواهب الطبيعية ، والثقافة الغنية ، والاطلاع عـلى تاريخ

المدنيات ، براعة يدوية هي الاحتراف الذي لا سبيل للفنان الى تحقيق اي عمل فني كامل بدونه . فكانت الاكاديمية تفرض على الطلاب شروطاً قاسية يتدرجون فيها الى الاتقان والكمال . وقد ساعد اتقان الحرفة فنانين لا ينعمون بمواهب طبيعية غنية على الوصول الى درجة يحسدون عليها ، فسيزان كان يحسد بوغرو لان اللجان المحكمة كانت تنسق اللوحات على اساس هذا المبدإ ، فتغض الطرف عن وسائل التفهم الخاص ، والموهبة الشخصية ، وهذا ما جعل بعض الفنانين الموهوبين يسعى الى رضا المسيطرين بالرضوخ الى احكامهم مهما تكن قيمتها .

حُلَّت الاكاديمية الملكية بسعي دافيد ، فبعث حلُّها في نفوس الفنانين المتمردين بارقاً من امل . الا ان دافيد النائب في الكونفنسيون ، لم يكتفِ بهذا الحل ، بل جعل العرض حراً في صالون باريس لعام ١٧٩١ . لكن هذه الحرية ظلَّت ، في عصر مضطرب ثائر ، نظرية اكثر منها واقعاً . فالدولة الفنّية هي دافيد ، اي ان دافيد ظل المسيطر على الفن الفرنسي طيلة اربعين سنة ، قامت خلالها اربعة انظمة حكومية متباينة ولم تستطع وقف سيطرته .

ان نظرية الرجوع الى التماثيل القديمة لم تنتشر قبل العام ١٧٨٥ . وليست النظرية نفسها هي التي أخرت سير الفن في

اوروبا جيلًا كاملًا ، انما هم تلاميذ ناشري هـذا المذهب لعدم فهمهم تعاليمه فهماً شاملًا . ففي انكلترا لم تمنع عقيدة النزعة اليونانية الدكتور ميد ، وهو احد المبشرين بها ، ان يخشع امام لوحات واتو ويظهر كبير اعجابه بها . الا ان الذين تتلمذوا على هؤلاء المفكرين الكبار كانوا اقل ذكاء منهم ، فلم يتمكنوا من فهم الغاية النبيلة التي كانت ترمي اليهـا تعاليم اساتذتهم ، فتدنت طريقتهم الى البرودة ، ثم الى الجمود .

كان السبب الرئيسي في انحطاط نظرية دافيد هو المصور البوهيمي رافايل مانغ الذي عاش متنقلًا بين روما ومدريـد ، وترك آثاراً اختلف النقاد في قيمتها ، فمنهم من رفع رافايل هذا الى مرتبة الفنانين الموهوبين ، ومنهم من جعله فناناً عادياً . ولعل هذا الرأي هو الاصح ، لان القوى الجمالية ضعيفة فيه ومعجونته شحيحة الالوان ، وطريقته جافة لا حياة فيها ولا حركة . لكنها تغري بنظافة الالوان واتقان العمل . وهذا ما اثر في تلاميذ دافيـد ونقّاد ليس لهم تهذيب فني رفيع واحساس مرهف ، فمجّدوا طريقة رافايل مانغ وجعلوا منه المصور الاكبر .

لم يتقيد دافيد بمذهب الرجوع الى القديم ، الا بمؤلفاته التي كان القصد منهـا اثبات نظرياته . وكان عندما يستوقفه وجه جميل وعينان جذابتان ، يستسلم الى موهبته واحساسه ، فيحقق

بغنى وعمق واخلاص صور الافراد والجماعات برسم متين والوان متزنة متآلفة . ولم يزد واحد من تلاميذ هـذا المعلم شيئاً عـلى تعاليمـه ما خلا غرو فلم تتمكن نظرية الجمـال الامثل مـن الحؤول بينه وبين الواقع الذي تأثر بـه مباشرة وحققـه بلوحات عبقرية شقت الطريق امام اثنين من اكبر الفنانين الفرنسيين هما جريكو ودهلاكروا . وعنهما اخذ الفنانون في فرنسا وتابع معهما تاريخ التصوير سيره بمعزل عن التعاليم الاكاديمية .

وكان من نتائج نفي دافيد الى بروكسل ، حرمان المدرسة الفرنسية رجلًا مؤمناً ، وتسلمهـا آخر مزعزع الايمـان . فتشتت شملهـا وانقسمت النظريـات بين غرو وانغر ، الى ان مات اولهما منتحراً ، فالتف المدرسيون حول الآخر وشهروا على الرومنطيقيين حرباً بلا هوادة جارت فيها احكام عـلى رجال من عباقرة الفن امثال جريكو ودهلاكروا وكوربيه وكورو ودومييه وباري . لكن التاريخ ، وهو اعدل حكم ، انصفهم ، فاحتل كل مكانه في اللوفر مدرسة الفن الامثل ، وسمي معلماً في مدرسة التاريخ .



ده لاكروا بریشته



نساء من مدينة الجزائر داخل الحرم



عراك بين الباشا والياور



فارس عربي



القديس سبستيان



المسيح في بستان الزيتون



طوبيا والملاك



المسيح نائماً في القارب في اثناء زوبعة

مأساة ده‌لاكروا

ترى لمَ اغمض ده‌لاكروا عينيه عن اعياد باريس وزهوها ،
ولى ظهره لياليها المعربدة الراقصة كالنور ، الشاعة كالثغور ؟
ماذا لم يرَ في انوارها الضاحكة سوى الظلمات ، وفي مراقصها
السكرى سوى المآتم ، وفي مسارحها التي تُلعب فيها المهازل سوى
المأساة ؟ لماذا اسدل ده‌لاكروا صاحب الخيال الجامح ، والدماغ
الغني الخصب المتفتح على جميع الاحاسيس ، لماذا اسدل على عينيه
قناعاً كثيفاً فحجب عنهما الحياة الهانئة وبنى جداراً بينه وبين العالم
الضحاك ؟

كتب مؤرخو ده‌لاكروا ان صاحب « عدل تراجان »
هو صنو لصاحب « عرس قانا » . ربما التقى الفنانان في تنوع
الالوان وغنى الراحة وسخاء المادة ، اما في فلسفة الحياة فلم
يتلاقيا مرة واحدة . لم يرَ فيرونيز في الدنيا سوى اعيادها ،

وحفلاتها ومراقصها ، وسخَّر لتحقيقها بذخ البندقية وغناها وما جاءها من الوان الشرق الدافئة ودلاله وملذاته : فالعطور تعبق في اجواء لوحاته ، وانفاس البخور تلثم الاقداح وتتعالى متهادية مع اناشيد الزهو والطرب في زوايا القصور بين الحرير والدمقس ، ويتماوج المخمل على قدود هيفاء ، وتشع على اعناق عاجية عقود الماس ، وتزدان الصدور بالزمرد والياقوت ، والمعاصم بالاساور البراقة . اعياد وثنية بين العطور والخمور ترقص على عزف الموسيقى ورنة الاقداح .

ويجمع النقاد على ان روبنس هو الموحي اليه بهذه الالوان الوردية المتلالئة ، والظلال الحامية الشفافة التي نشاهدها في لوحاته . لكن مجموعة روبنس التي في اللوفر والتي كان يستوحيها ، هي ايضاً اعياد وافراح ، « فالكرمس » وسلسلة لوحات حياة ماري دي مدسيس ، أنشد نابغة انفرس فيها كلها اناشيد الجسد والشهوة ، فالاجسام تتلوى طرية ، بضة ، ناعمة ، شفافة ، تتآلف فيها الالوان تآلف الاصوات في السمفونيا ، وتضج فيها الحياة الحرة العارية ضجيج الامواج ، وتصخب صخب العواصف . اعياد على الارض ، اعياد في الاولمب ، اعياد الجسد واناشيده في كل روعتها وجمالها وحيوانيتها . حب هنا بين الجنائن والازهار ، وحب هناك بين الغيوم التي لا تحجب عن عيوننا شيئاً من غنى المادة ، وجمال

التقاطيع .

وبعد ، ما هي المأساة التي كان مسرحها قلب دهلاكروا وخياله وعقله ، فأرته الدنيا « شعلة نار اشعلها الانسان بيد القدر » ؟ وما هذا العذاب الداخلي الذي عصف في ضلوعه وضج في كيانه وحز في نفسه فاعمى عينيه عن الحياة وهو الذي تعج فيه الحياة عجيجاً ، وتتدفق من يديه بفيض وكرم ، فتحرك الاشكال وتعذبها ، كأن نفسه ترتاح الى تعذيبها . أموت والديه وهو بعد صغير ، ام تلك الدعوى التي جردته من خيرات العالم المادية التي ورثها عن والديه ، وتركته بحالة الفقر المدقع ؟ أهي مطالعته دنتي ، وشكسبير ، وبيرون ، ووالتر سكوت ، وغيرهم من كبار كتّاب المآسي ، ام عصبيته المشتعلة ومزاجه المريض ، والنفس الجبارة التي يضمها هذا الجسم النحيل ، فتعذبه كما يعذبه دماغه الخصب وخياله المضطرب ؟ ام هي همسات الثرثارين التي كانت تبلغ اذنيه احياناً مرجعة انه ابن طبيعي لتاليران ، ام هم الناس عموماً بشرّهم المطبوع على قسمات وجوههم ، والغدر المطل من نوافذ عيونهم ، والحسد الذي يأكل قلوبهم ، ام الكوارث التي كانت تتتالى على العالم من حروب ومذابح ومجاعات وتعذيب وتقتيل وحرق ونهب وتقطيع ، ام هو النضال الطويل بينه وبين دافيد وتلاميذه ثم مع انغر واتباعه ؟

ان احساس دهلاكروا الدقيق وانسانيته الكاملة وخلقه النبيل ومطالعاته ومشاكله الخاصة ، ساهمت كلها في تغذية شعوره واثارة نفسه السامية وخياله المضطرب . فكان يثب الى قماشته يرسم الاشكال ، وينثر الالوان ، بيد عصبية ودماغ هائج ، فتتألب المخلوقات بين يديه حية ، متألمة ، صارخة ، هنا رجال متمددون يلفظون انفاسهم ، وهناك نسوة يبكين ، وامهات فارقتهن الحياة ولا يزال اطفالهن يدبون على صدورهن يفتشون عن اثدائهن ، وهنالك صبايا تجرهن الجياد فتتناثر اشلاؤهن على الغبراء كأزهار عبثت بها انامل قاسية ونثرتها في الهواء . ان لوحات دهلاكروا صيحات تدوّي في اذن الانسان وتولول في وجهه : رويدك ، الى اين ؟

للوحات دهلاكروا بالوانها القوية مغازٍ ثقافية تهذيبية . وما هذه المذابح والمجازر البشرية التي صورها سوى شهادات ناطقة ببربرية الانسان ووحشيته ، وهو لم يخلدها حباً بها ، بل مثلها امامنا ، وجسّم بشاعتها وقسوتها ، ليثير في نفوسنا الشعور الانساني النبيل ، فننصرف عن التدمير الى التعمير ، وعن القتل الى الخلق ، ونتنكر لهمجيتنا الحيوانية ، فنرتفع الى ذروة انسانيتنا بما فيها من نبل ، وحب للخير ، والجمال ، والكمال .

اوجين ده لاكروا

في ايلول ١٨٦٣ كتب بول ده سان فيكتور يقول : « لا يجوز لنا التصدي لكتابة حياة ده لاكروا لاننا ما زلنا بحاجة الى كثير من الوقت والجهود لننفض عنها غبار الاهمال الذي غمرها ، ويحسن بنا ان ننتظر همس الذكريات ، ونشر الرسائل والمقابلة بين الشواهد . »

اما اليوم وقد دخل ده لاكروا في « بانتيون » التاريخ الذي تخيله « دانتون » فاصبح بامكاننا ان نتحدث عن حياته وفنه .

رأى ده لاكروا النـور في « سان موريس » في ٢٧ نيسان من العام ١٧٩٨ . وفي مذكرات الروائي الكبير « الكسندر دياس » صورة صادقة عن طفولته الثائرة ، وحيويته العصبية .

كتب « الكسندر دياس » ان « اوجين ده لاكروا اوشك في خلال سنة ، ان يغرق ، وان يتسمم بزنجار النحاس ، وان

يشنق نفسه بحزام اخيه البكر ، وان يحترق حياً في فراشه ، وان يختنق بحبة عنب . » ولاحظ الكسندر دياس ان عين اوجين لم تكن تفارق انامل النحات « شينار » عندما كان ينحت رأسي ابيه وامه في مرسيليا ، وانه ادهش احد اساتذة الموسيقى في « ليون » ببداهته النادرة . فلو ان هذه المزايا لازمت طفولة ولد ظل مغموراً ، لما تنبه لها احد . ولكن ميله الفطري الملح الى الفنون الجميلة لفت اليه النظر واثار فضول الروائي الكبير ، فدوَّن هذه العوارض .

لم يكن ده لاكروا يجهل هذه الخصائص فيه ، فقد حدَّث يوماً صديقه بودلير عن طفولته واكد له انه كان غلاماً خطراً . اما اول اثر فني لده لاكروا ، فيرقى الى العام ١٨١٤ وهو تجربة حفر على قدر من المعدن . واول اثر ادبي له رسالة الى صديق ، تصور ديراً اشتراه نسيب له في النورمندي ، يقول فيها : « ان في هذا البناء دهاليز مستطيلة يكاد البصر لا يصل الى آخرها ، وسلماً ضيقة من الصعب على اثنين الصعود فيها معاً ، وكنيسة قديمة متهدمة تحرس جدرانها المتداعية مدافن اسياد « ايتو نفيل » ، وفي سكون الليل وهدوئه ينسل الهواء بين اخشاب شرفاتها المتباعدة فيحدث صفيراً خفيفاً يرافقه نعيب البوم التي تأوي اليها فتثير في النفوس المرهفة احساساً حزيناً يحرمها طمأنينة النوم ،

ومع ذلك احببت هذه النزهات الليلية وحلمت منفرداً بين خرائب هذه الكنيسة الصامتة التي كانت جدرانها ترجع صدى وقع خطواتي . »

وفي رسالة اخرى يتمنى ده لاكروا على الحظ ان يسعده بدخول محترف « غيران » : تمنى ذلك طفلاً ، وحلم به يافعاً يوم كان في المدرسة لا تطمح نفسه الى اعلى من مستوى الغواة . دخل المحترف في ريعان الصبا ، وكان رومنطيقي النزعة ، مشتعل الاحساس ، تسيطر المأساة على تفكيره ، ويرى العالم شعلة نار اوقدها القدر بيد الانسان . فاصطدم ببرودة رجل لجمت تعاليم « دافيد » خياله وقتلت شخصيته . فترك محترف « غيران » مختاراً ، وذهب الى متحف « اللوفر » يستوحي بين جدرانه الرحبة الغنية ، كبار الفنانين ويدرس آثارهم . فنقل « تيسيان » ، و « فيرونيز » ، و « رافايل » ، و « روبنس » ، فتأثر بهذا تأثراً كبيراً ظهر في لوحته « محرقة سردنبال » ، فمن « روبنس » لون هذه البشرة الوردي المتلألىء ، ومن « روبنس » هذه الاجسام الغضة البضة تفيض حياة وحركة ، ومن « تيسيان » هذا الجو الغني الدافىء يتآلف فيه الاحمر والاخضر تآلفاً عجيباً ، ومن « فيرونيز » هذه الجموع المتآلبة وهذه السهولة في الخلق .

وفي اللوفر التقى دهلاكروا « جريكو » هذا المتمرد الآخر

على التعاليم الدافيدية فدعاه الى محترفه واراه رائعته « خشبة المادوز » التي فتح بها فتحاً رومنطيقياً في الفن ، فصعق ده لاكروا لرؤيتها وخرج من محترف « جريكو » هائماً على وجهه ، تائهاً في شوارع باريس وازقتها ، فاراً من اشباح الجياع المنتصبين هرماً امام عينيه ، ومن الموجة الجبارة الهائلة الفاغرة شدقيها لابتلاع الخشبة ومن عليها .

تجلى تأثير « جريكو » في بكر لوحات ده لاكروا « دنتي وفيرجيل » التي رفعته الى الشهرة دفعة واحدة ، واثار عليه من اجلها اتباع « دافيد » حرباً بلا هوادة ، فأجمعوا على انها صفعة على جبين الفن .

يوم تعرف « ده لاكروا » الى « جريكو » ، كان هذا يعلو بعبقريته الرائعة على عصره والمرض يأكله ، والقبر ينفتح لضمه بين احضانه الباردة ، وكان « انغر » يتملص من النير « الدافيدي » حالماً بـ « الكواتروسنتيست » واليونان .

ظهرت لوحة « دنتي وفيرجيل » كاللغز لا حلّ له ، فاللوحة تعد تاريخياً من اهم لوحات العصر .

ده لاكروا ، ابن اربع وعشرين سنة لا يطرح المسألة الجمالية بوضعه التصوير في خدمة الادب ، والشعر ، والتصوف ، وكلها غريبة عن التعاليم الدافيدية فحسب ، بل يلقي درساً جمالياً في

الرسم ، فيفضل التقطيع الملوّن على الخطوط ، ويتنبه الى رد فعل النور والهواء على اللون المحلي ، ويضحي بالجمال المألوف في سبيل التعمق في الدرس النفساني . وهذا ما لم يجرؤ عليه واحد بعد « روبنس ورامبرانت » ولم يتساهل به الدافيديون مع « غرو » و « جريكو » الا بمقدار .

كان التصوير ، نقلًا مباشراً عن نماذج حية ، ثورةً على الفن ، فبشّر مثل « دنتي وفيرجيل » هم إلحاد في نظر « انغر » ، وتحدٍ لقواعد دافيد الجمالية ، وبربرية في نظر المدرسين ، ولكنهم دروس جديدة للشبيبة الرومنطيقية .

استعار ده لاكروا الوقائع التاريخية من خلال خيال كبار الشعراء وجسّدها بقوة وعصبية ملتهبتين . فـ« هملت » حقيقة كـ « الصليبيين » ، و « دون جوان » كـ« الترك » ، و « جنود شارل الجسور ودنتي » احياء كـ « ثوار ١٨٣٠ » . لم يمجد المعارك الوحشية ، وفتك الانسان بأخيه الانسان ، بل جسّم هذه الحوادث بدماغه المفتوح على كل الاحاسيس الكبيرة ، وعبّر عن الألم والبطولة ، والعذاب خلال العصور ، وألف من رسمه وزناً ، ومن الوانه موسيقى لم يؤلف مثلها احد ، ولم يعرف واحد مثله ان ينسق الالوان ، وينشر الظلال الملونة ، ويرمي بالنور على العنصر الاساسي ، فيضج ، ويضحك ، ويرقص ، او يصرخ ، ويتألم ، ويموت .

فلوحة « دنتي وفيرجيل » هي احتجاج صارخ على المدرسة الدافيدية ، هذه المدرسة التي كان يقول عنها : « انها اقرب الى مؤسسة اثرية منها الى مدرسة تصوير . »

نحن نعجب اليوم ، لهذه اللوحة ذات الاشكال الكلاسيكية الرصينة ، والالوان الهادئة ، تعد في ذلك العصر لوحة ثائرة وتستحق تلك الشتائم القاسية . ولكننا لو قابلنا بينها وبين « يمين هوراس » لدافيد لادركنا جرأة ده لاكروا على التجدد وثورته على تعاليم ديكتاتور الفن . ليس الجديد في تحفة ده لاكروا هو خلق اجساد تخالف مقاييس الجمال الدافيدي ولا هو تعريف المدرسة الفرنسية الى الوان تجهلها فحسب ، بل الجديد في رائعة ده لاكروا هو التعبير بقوة صارخة عن العاطفة العميقة ، الممزوجة بالمأساة الفاجعة بطريقة حية جريئة تساهم فعلياً في اظهار هذه الاحاسيس ، فأجساد الهالكين المتلوية ، وعضلات هذا الناشب اظفاره واسنانه في الزورق ، وفوران الاجساد الدكناء في بحيرة الظلمة السفلية ، والانوار الكبريتية الصفراء تلفح بشرة المعذبين ، والمأساة التي تمثل في رأس دنتي وتطل من عينيه ، وفمه ، ويديه ، صورت كلها بثقة وقوة ومهارة لا تبلغ اليها سوى موهبة نادرة ذكر عنها « تيرس » انها جمعت الى قوة « ميكل انج » سهولة « روبنس » وغنى الوانه .

الا ان هـذه الجمـالات لم تمنع اللجنة الحاكمة في مسابقات المدرسة من تقديم تسعة وخمسين مصوراً عـلى ده لاكروا فانتقم له التاريخ بأن سجل اسمه بين كبار المصورين العـالميين وفي طليعة الفنانين الفرنسيين ، فهو ينتسب الى « فيرونيز » و « روبنس » والى كبار نوابغ الفن الذين تتهافت المتاحف على شرف اختطاف لوحاتهم ، وستظل لوحاته جواهر تشع على جدران المتاحف وبين مجموعات الهواة .

هز العالم نبوغه العاصف المتقلقل الخصب المشع بمـا خط من صفحات رائعة وما خلد من المآسي البشرية .

مذابح كيو . — ارسل الى صالون باريس ، العـام ١٨٢٤ ، لوحة تمثل « مذابح كيو » استوحاها من نضال اليونان في سبيل استقلالها . فصاح « انغر » لما رآها : « ليست هذه مذابح كيو انما هي مذابح الفن . » وجن « جيرار » ويئس « غيران » واعلن غرو ان ده لاكروا يركض عـلى السطوح ، ولكن احداً لم يره يثب الى السماء .

تحدّى ده لاكروا للمرة الثانية قواعد الجمـال التي بشّر بهـا دافيد ، فصوّر الموت الرهيب على وجه صبية لا تزال يد طفل تفتش عن ثديها ، واليأس المجنون في عيني ام تشاهدان الموت يزحف بثقة وبطء الى ابنهـا الممدد بقربهـا ، وفارساً كردياً

يمتطي جواداً ثائراً يتدفق الزبد من شدقيه يجر فوق ذيله صبية طرية عجزت وحشية الغزاة عن تشويه جمالها ، صبية لم تخلد ريشة ده لاكروا اجمل منها . فتصرخ امها ، تولول يسراها بوجه الظالم ضارعة ، وبيمناها تشد شعرها المشعث متوسلة يائسة ، فيرشقها الفارس بنظرة قاسية ، ويمد الى سيفه الاحدب البراق يداً تعودت امتشاق السيوف ، وألفت التقتيل والتقطيع .

وفي جو الطبيعة التي تقع فيها المأساة ، حلم كئيب باكٍ وانوار تتشظى هنا وهنالك ، بين تلال دكناء ، وغيوم سوداء ، ودخان الحرائق المتصاعد الى السماء ، فتزداد تلك البقعة الدامية هولاً ورعباً .

يروي اصدقاء ده لاكروا ان جو هذه اللوحة هو من يد صديقيه « سوله » و « تايس فالدنج » المصور المائيّ الموهوب الذي كان يعيش واياه ، ولكن الثابت ان ده لاكروا اشتغل منفرداً شهوراً طوالاً في بناء الموضوع ، فحوّره مراراً ، واحيا الوان اللوحة كلها ، بعد ان اتيح له رؤية لوحة من ريشة صديقه « جون كونستابل » المصور الانكليزي الناعم .

لوحة محرقة سردنبال . — اما لوحة محرقة سردنبال ، فقد اثارت كأخواتها النقاد والدافيديين ، فكتب بعضهم يقول : « انها صورت بمكنسة سكرى . » وقال آخر : « انها صنعت بيد مريض يهذي . » ويعترف ده لاكروا بان اول نظرة منه الى لوحته

معروضة بين لوحات الاكاديميين ، اقلقته ، وتمنى ان لا يراها الناس من خلال عينيه . اما اليوم ، فاين نحن من هذه الآراء المتضاربة المغرضة ، فاللوحة آية من آيات الفن الرائع ، تعج فيها الحيوات ، وتجابه الالوان بعضها بعضاً ، وتداعب الانوار اجساداً بضة ، يختبىء الظل وراءها ندياً شفافاً ، وتطبق الظلمات حولها هوى ، وتفتحها على جمالات ، تطل على العيون ، فوق تلال تلثمها شفاه النور ، ووهاد تتفيأ الظلال الطرية ، وعلى منصة فسيحة ، فرشتها انامل ابنة صور بأرجوان غني ، يتكىء المليك مطمئناً ، بهدوء دونه هدوء الموت ، وتتململ حوله صبايا ، البستهن راحة ده لاكروا ، الالوان الوردية المتلألئة ، بسخاء ما بعده سخاء .

لم تستطع كل هذه الجمالات دفع الشتائم عن ده لاكروا ، فارسل « ده لاروشفوكو » مدير الفنون الجميلة آنئذ بطلبه ، وانذره بان يغير طريقته ، والا عوقب بالحرمان .

وعلى اثر ذلك ، كتب ده لاكروا الى صديق له يقول : انت تدرك ما لهذا الحرمان من التأثير علي ، ليس من الناحية المادية فحسب ، بل لاني اشعر اني من القوة بحيث استطيع ان اغطي مدينة بالصور . اما هذا التدبير الجائر فهو اضعف من ان يطفىء شعلتي ، ولكنه سيضطرني لان اضيع اخصب سني العمر

باشياء تافهة لا تهمني .

وهكذا ، لم يزعزع التهديد ايمانه ولم يثنهِ عن السير في الطريق التي اختطها لنفسه ، وزاد ثروة الفن بسلسلة لوحات عبقرية ، خالدة ، يعيش العالم معها في حلم يتجدد كل ساعة ، فيسيطر على عواطفنا واحساسنا ويثير دهشتنا واعجابنا باناشيده الرقاصة الضحاكة ومآسيه الصاخبة الدامية ...

موت شارل الجسور . — مثّل ده لاكروا هذا الحادث في يوم ممطر عبوس تحت سماء محجبة بالغيوم الدكناء ، يختلط الرجال بالخيول ، والاعلام بالحراب ، وتحتل الفاجعة المقام الاول . كبا الحصان بشارل الجسور ، وطار السيف من يمينه ، وهاجمه عدوه برمح طويل يحمل الموت المحتم . فينادي جواده بصوت تهتز له اعصاب المطية ، فتندفع بكل ما في قوائمها من قوى ، ولكن الموت كان اسبق .

لم يكن حكم النقاد على هذه اللوحة بأرحم منه على اخواتها ، فقالوا انها لا تمتّ باي صلة الى ما سبقها من لوحات المعارك النابوليونية ، وانها تخالف الحقيقة التاريخية .

نسي النقاد ان « دهلاكروا » ثائر على الشرائع ، شارد بين الارض والسماء ، يرى الدنيا شعلة ومجزرة اضرمتها احقاد لا نهاية لها الا بنهاية الانسان . ونسوا ان الفنان ليس مؤرخاً يروي

الحوادث بامانة ، بل هو شاعر يلبس الواقع حللًا من خياله ، ويعرضه على الناس مخلوقاً جديداً .

الحرية تقود الشعوب . — وفي لوحة « الحرية تقود الشعوب » باح ده لاكروا ببعض معتقداته السياسية ، واسدل ستاراً من النسيان على الماضي ، ومثَّل المأساة الحاضرة بمزيج من الخيال والواقع .

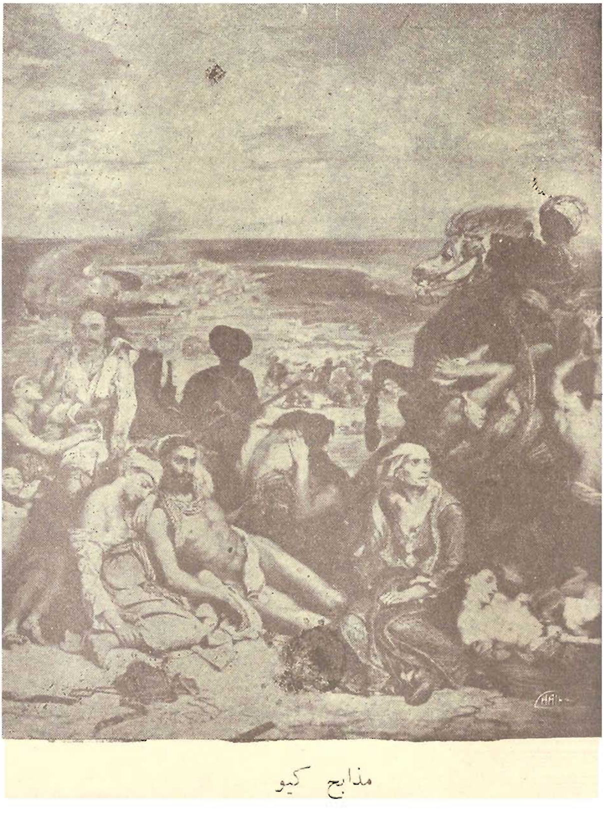
تتصدر اللوحة فتاة جميلة جذابة ، برزت عارية النهدين ، ترفع العلم بيمناها ، وتمسك البندقية بيسراها ، تتطلع الى الشعب الصاخب الهائج ، بعينين ملؤهما السحر والعزم . مشت ملوحة بالعلم ، عن يسارها غلام في العاشرة ، يشهر غدارة بيمينه ، ويحمل اخرى بيساره ، ولعله كفروش « فيكتور هيغو » . وعن يمينها وقف فتى عصبي المزاج ، يعتمر بقبعة عالية ، ويلتف برداء اسود . انه يتحفز للوثوب معها . ويزحف عند قدميها فتى ثالث مصعداً اليها نظرات الاعجاب واليقين ، وتتبعها الجماهير الحانقة ، الغاضبة على الظلم ، تلمع في ايديها الشفار ، وتشع العيون ببريق الحرية .

اما اشلاء القتلى ، التي تدوسها الجموع الزاحفة ، فهي معجزة الفن الحديث في الرسم والوضع والتلوين .

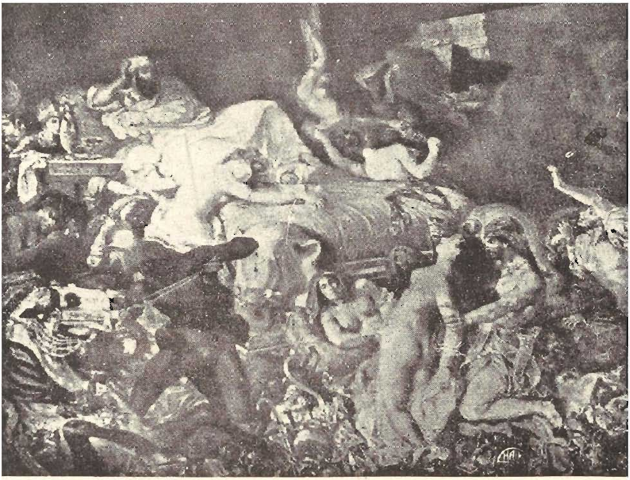
اسقف لياج . — استقى ده لاكروا الموضوع من القصصي « ولتر سكوت » ، مثَّله بقسوة بربرية .

جو قاتم راعب ، وقاعة سرية ، مظلمة ، مبهمة ، وانوار باهتة ترسلها المشاعل ، ويداعب الهواء انعكاساتها على غطاء ابيض فتكوّن اشباحاً رهيبة . كان دهلاكروا يحدث اصحابه عن الغطاء ويقول : غداً اهاجم هذا الغطاء اللعين ، فلا اعلم أيكون لي اوستراليتز ، او واترلو ؟ فكان اوستراليتز .

دخول الصليبيين الى القسطنطينية . — اما تحفة دهلاكروا فهي « دخول الصليبيين الى القسطنطينية » ، لوحة اتفق النقاد والفنانون على انها واحدة من اربع او خمس لوحات هي اجمل ما في العالم . يطلّ الصليبيون بخيولهم المطهمة ، تشق الفضاء بيارقهم ورماحهم ، حاملين على رؤوسهم الهم والالم ، تعبين من الظفر ، مثقلين بالنصر ، يريبهم المستقبل ، تحنو الجياد على ضحاياهم ، فيمد حصان القائد الاكبر رأسه النبيل الى فتاة جاثمة بقرب ابيها الشيخ ، الذي يطلب الرحمة له ولها ، ويلوي بعنقه اللين الجميل يود ان يداعب بشفتيه جمالاً امتدت اليه يد الشقاء ، وشوهته وحشية الانسان . وفي هذه اللوحة ، تحتل النساء وحليهن المقام الاول ، فقد صبَّ دهلاكروا النور عليهن وعليها ، فبرزن انصاف عاريات جميلات تغمر وجوههن الحلوة شلالات من الذهب المذوب ، وتفرش الارض التي تمثل عليها المأساة عقود ومجوهرات وحلى وكل ما ينم عن البذخ ، والترف ، والسخاء . ويخيم على



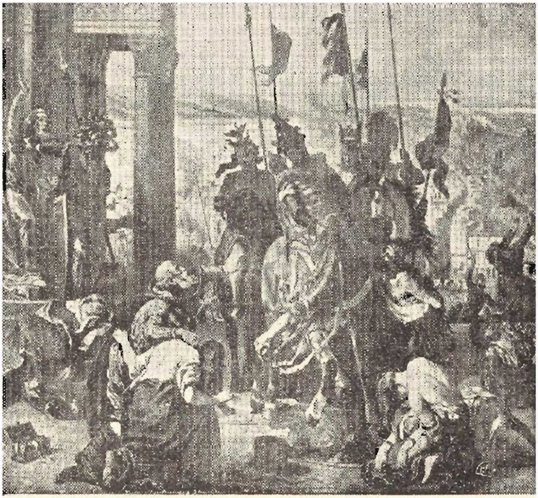
مذابح كيو



محرقة سردنيال



خشبة المدوز لـ « جريكو »



دخول الصليبين الى القسطنطينية



هملت وحفار القبور



میکل انج



حصان جامح



ده لاكروا ، بريشته



اثينا الثائرة

مدينة قسطنطين الكبير هدوء مريب ، تنير سماءه الكئيبة الوان الصبح الفضية مع زرقة شاحبة وسحب سمراء قاتمة تنسجم انسجاماً تاماً مع جمهور الفرسان ، فتزيد المأساة نبلًا وجلالاً .

في هذه اللوحة فرشت راحة دهلاكروا السخية الواناً صمّاء قاتمة مستوحاة من السجاد الشرقي . واثبت الفنان مقدرته على التحليل ، فتذكر « شاردان » و « واتو » وتنبأ عن « مانه » .

كتب « بودلير » يصف دهلاكروا ، قال : « انه نحيل عصبي ، كله قوة وحماسة ، قوة مصدرها الاعصاب والارادة . ان في عيني نمر يتحفز للوثوب على الفريسة ، اقل مما في عيني دهلاكروا من نور . وعندما تحوّم نفسه حول فكرة او حلم تضطرب اعصابه ، وتسري القشعريرة في عضلاته .

« ان عينيه السوداوين ، الكبيرتين ، قد صغرتا لانه تعوّد ان ينظر بهما وهما شبه مطبقتين ، فيخيل اليك انهما تستلذان النور وتسكران بالنظر اليه . ويظلل شعره الاسود اللماع جبهة عنيدة وشفتين مضمومتين بضغط متتابع من ارادة حديدية .

« لريشته جرأة غريبة والوان ساحرة يتآلف فيها الاخضر والاحمر والاصفر بانسجام وقوة عجيبة ، فتفلت الحياة من يده جارفة صارخة تهز الاشخاص الاكثر هدوءاً ، فتحركهم رعشة داخلية .

« لوحاته هي مذابح وحرائق ، شهادات ملونة حية ، ناطقة ببربرية الانسان ووحشيته الازلية : فالمدن مشتعلة ، والضحايا مخنقة ، والاطفال بين سنابك الخيل ، وتحت خناجر الامهات الفاقدات الرشد . لوحاته اناشيد دامية تحت اشراف القدر والالم الثائر . خيال جامح بين الفردوس والجحيم ، بين الحرب والصلاة ، بين الاولمب واللذة ، بين الارض والسماء . فهو المصور الشاعر ، هو واحد من المحظوظين ، يشع خياله المتقد اشعاع الكنائس القوطية بالشموع والارجوان . اولع بكل ما في الآلام من الم وما في الكنيسة من جلال . كل ما في الكون يثير خياله فيريق على قاشته الملهمة الدم ، والنور والظلمات . »

كان هذا الرجل حباً وارادة . وكان من المؤمنين بالتأثير الاول الذي توحيه الطبيعة ، ويعمل بسرعة كي لا يتبخر شيء من نشوة الفكرة التي تجتاحه . سُمع مرة يقول لصديق : « اذا كنت عاجزاً عن رسم رجل رمى بنفسه من الشباك ، ساعة يسقط من الطبقة الرابعة ، لا يمكنك ان تصنع شيئاً كبيراً . »

رغبة ملحَّة لا سبيل له الى تسكينها . نداء داخلي كان يهمس في اذن قلبه باغراء « الشرق ، الشرق » ، هذا الحلم الملون ، حلم حياته ، كان يسيطر على تفكيره وخياله ، فعقد النية على رحلة الى الشرق ، ورافق البعثة التي امت مراكش برئاسة الكونت

دي مورنه .

قضى دهلاكروا ستة اشهر بين طنجة ومكناس والجنوب ، جمع خلالها تأثرات كثيرة ، ورأى بعينيه النور الذي احسه وتخيله منذ زمن ، غير انه لم يدون سوى معلومات ملونة ، سريعة ، كانت له كنزاً يغرف منه ، مع ارتيابه بصدق هذه التأثرات ، كما تشهد رسالة يقول فيها :

« انا على يقين ان هذه الدروس والوثائق محدودة الافادة ، فبُعدي عن الوطن الام يجعلها كأشجار استؤصلت من ترابها . ان النسيان كفيل بتخفيف تأثيرها في مخيلتي . ولهذا انا ضنين بان اصور ببرودة وعدم ثقة في التحقيق ، الحياة الملونة الزاخرة ، التي تشع في الشوارع ، والتي تقتلنا حقيقتها الرائعة . »

ظهر تأثير رحلة مراكش في الوان دهلاكروا ، الملون الجريء الحادّ . فهجر على الاثر اللون الاسمر القطراني ، والسوائل الحامية ، وصوّر نساء الجزائر بسخاء في المادة ، وغنى في اللون نادرين ، يزيدها ضياءً جو اشهب ، فضي ، كسول ، دافىء .

ظهر تأثير الشرق في دهلاكروا ، فهدأت ثورته . وبدلاً من المآسي التي مثّلها تحت سموات مضطربة عاصفة ، عزف لنا انشودة الهدوء والكسل يخدرها العطر ... فرحةٌ طربت لها اناملُ الفنان ، فتلاعبت ما شاء الخيال بالوان البَشَرَة والاقمشة

والفسيفساء ، فجعلت من هذه اللوحة قطعاً نادرة الجمال . ويكفي العين النقادة الحساسة ، ظهر هذه الزنجية يلمع بين الالوان الصافية الدافئة . انه يذكرنا روائع الفن الاسباني .

في مراكش ، رأى دهلاكروا كيف تتحكم الشمس باللون ، واكتشف اسرار الظلال الملوّنة ، وعرف دور الانعكاسات الملطفة ، واستخلص من ذلك معجونة نيِّرة ، ينثرها هنا وهناك ، على معطف احمر ، او مرتفع اخضر ، أو على غيمة تشع تحت سماء كالحة .

عراك الباشا والباور . — هي انشودة من النور الملوّن . يتلاقى الفارسان في صحراء فسيحة ، مضطربة ، فيلتحمان وينقضّان الواحد على الآخر بقوة وضراوة ، فتلامس الخناجر الاجسام او تكاد ، وتشترك المطيتان اشتراكاً فعلياً في المعركة ، فيعض حصان الباشا الابيض عدوه الاحمر ، ويدافع الاحمر بحافره دفاعاً يائساً . وبين قوائم الخيل قتيل يعانق الارض قرب خنجر براق . وتريد المعركة وحشية طبيعة هوجاء تحت سماء لولا ومضات نور تمزق ظلماتها لخلناها سماء القطب الشمالي .

تتسم النزعة الشرقية عند دهلاكروا بطابع تحليلي ، ف « ماريلا » و « دهكان » و « غيومه » كانوا اكثر فضولاً فاقتربوا من الحقيقة العارية وصوروا الطبيعة والعادات عن كثب . واضاف « شاسريو » الى روحية الانسان الافريقي احساساً في المناخ . وقبل « بنار »

رأى « فرومنتان » الحياة الخاصة واحسها . اما ده لاكروا فيظل متفرداً بتصوير حب الشرقي للشرف ، للترف ، للذة وسرعة الغضب . ولم يسر في هذا المضمار فنان ابعد منه في لوحتيه « براز الفرسان ونساء الجزائر » اعطانا فيهما هذا الشيء الذي كنا نجهله ونشتهيه ، كما اعطانا اياه في دروسه عن الوحوش ، وعن الجياد السورية .

كان ده لاكروا يعد الرسم واللون في الموضوع ، اداة للتعبير عن شعور داخلي او فكرة ما . وما هذه العيوب الجمالية التي يعيّره بها الاكاديميون في بعض الاجسام ، الا تحوير اراده ، فهو يقصِّر عضواً ، ويطيل آخر ، حتى تتلاحم مخلوقاته وتتكتل اشخاصه ، فيجبر الطبيعة على طاعته . وهذا ما فعله « رودان » بعده ، وهو لم يرض قط ان ينقلها على قماشته كما هي ، انما كان ينقلها كما يريدها خياله الغني .

ولالوان ده لاكروا مزايا خاصة وفضائل نادرة بين مدارس التصوير . فهي تحتفظ بطابع ثقافي دقيق . انها اللباس الذي يتطلبه الفكر . وهي في غناها وتنوعها كالنفس البشرية لا تحد . هنا تنشد الزهو والامل والشباب ، الوان فرحة براقة . وهناك اناشيد صماء تتمتمها الوان فاجعة خرساء . تناديك لوحاته من بعد ، وتنبهك الى ان الفنان هنا ، وانه سيتلو عليك قصة فرحة

او مغامرة اليمة الخاتمة ، في فمه بوق الفرح والنحيب . اما لغته التي لا تخونه ابداً فهي اللون . انها دائماً ملك يمينه .

لم يلقِ المدرسيون سلاحهم ، ولم يكتفوا بالاحتجاج على كل تشجيع كانت الحكومة تخصه به ، بل اوجدوا خلافاً بين « انغر » ودهلاكروا او بالاحرى بين تعاليم « انغر » وطريقة دهلاكروا . فتجسم الخلاف حتى تباغض المعلمان . ف« انغر » غضوب ظالم قاسٍ ، ودهلاكروا ساخر لاذع ناعم . وبين سخرية هذا وغضب ذاك تفاقم النزاع وتطور الى ما لا يجب بين فنانين لكل منهما رسالة يؤديها .

ليس في سير الحياة خطوة لم تسمع وقع قدمها اذنا دهلاكروا . استوقفته المآسي والاساطير ، الحقائق والديانات ، فألمّ بها جميعاً لانه ، كما قال « بودلير » ، خيال جامح بين الارض والسماء .

القديس سباستيان . ــ صوّر هذا الموضوع مئات الفنانين ، واتخذوه ذريعة لتمثيل الجمال العاري ، فتباروا في تصوير جسد الشهيد الشاب ، وتفننوا في اوضاع موحدة المعاني . اما دهلاكروا فلم يرَ سوى المأساة ، فالشهيد ممدد على الارض ، يتلقى اغاثة امرأتين ، تنحني احداهما عليه بعطف وتنتزع من صدره السهام التي رشقه بها الجلادون ، فتتألم المرأة الاخرى للمشهد ، فتحوّل وجهها عنه ، وتسند قلبها بيدها منتحبة .

ليست هذه اللوحة مباراة جمالية ، وانما هي مأساة انسانية . ما اختار دهلاكروا وضعاً من اوضاع ادونيس ، وما اهتم باظهار جمال التقاطيع ، بل صبَّ كالساحر النور على جسد الشهيد ، فظهرت عضلاته المفتولة وكأنها لا تزال ترتعش تحت تأثير الالم .

ان لوحة « سان سباستيان » نداء صارخ ضد التعاليم الاكاديمية ، وتأثر مباشر بالطبيعة ، الى ذكريات بعيدة عن « ميكل انج ، وجريكو ، ورامبرانت » .

يسوع في بستان الزيتون . — هي مأساة ثانية ، يصور بها دهلاكروا صراع الموت والحياة ، ويسمعنا كلمة ابن الانسان التاريخية عندما تركه تلاميذه وحيداً : نفسي حزينة حتى الموت ! يسوع يتملص من انسانيته المادية فيشع وجهه بالنور ، وتتراقص امام عينيه مشاكل البشرية كلها ، وتتجسم الاحقاد والمطامع والرياء ونكران الجميل ، فلا تؤلمه هذه كلها بقدر ما آلمته خيانة تلميذه . وتتراءى له الكأس طافحة يقرأ فيها ارادة ابيه ، فيستسلم ويلوي رأسه قائلاً : « يا ابتاه فلتكن مشيئتك . »

المسيح في حضن امه . — ام يسوع وحدها تندب ابنها وتبكي على نفسها ، منفردة في دنيا من الظلام ، تحت سماء عبوس سوداء تمزق عتمتها لمعات نور دامية . انها تشارك العذراء البكاء على رسول الحب والسلام .

صراع يعقوب والملك. — اما هـذه اللوحـة فهي اروع لوحاته الدينية . يقع الحـادث في بقعة من الفردوس . يبذل يعقوب جهوداً جبارة للانتصار على الرجل السماوي الذي يصده دون عناء .

لعل ده‌لاكروا أحب ان يعطينا بهـذه اللوحة الرائعة درساً جمالياً . ففي عضلات يعقوب المشدودة اناقة وقوة ، وفي جسده الجبـار اشياء من ميكل انج . اما الملاك ففي وجهه من الهدوء والجمال الكلاسيكي ما لم نتعوده في لوحات ده‌لاكروا . أتراه ذكر ما قيل عنه من انه يهمل الرسم ويجهل قواعد الجمال ، فاراد ان يخرس الالسن الثرثارة ، ويثبت للملأ انه قادر ان يحقق بريشته ما يريد ، وان يقول ما يشاء ؟

تنبأ احد النقاد بان ده‌لاكروا لن يرسم ابداً مثل « جيروده » ، فلم يكن اسهل من تحقيق هذه النبوءة . ولكن أكارثة هي على الفن ، ام مجد لده‌لاكروا ؟ ان رسم ده‌لاكروا وحبه الطريقة التزيينيـة ، خلقا له مشـاكل لا تنتهي . الا ان شهود هـذا الجهـاد يؤكدون ان الملون عرف في اشد احتدام المعركـة ، ان يتقي جميع الهجمـات ، وعرف العـالم فيه الموسيقي الملهم يسخّر الالوان لينظم منهـا مجموعة لينـة ، طرية ، مشرقـة . فاللون وسحره هما من نعم الله عليه ، فهو الملوّن الذي لم يخفق .

وخلافاً لما اشاعه اعداء دهلاكروا عن اهماله التأليف والبناء ، فقد كان يشبع موضوعه درساً ، ورسماً وتلويناً ، بالزيت ، وبالباستل . وكان عندما تجتاحه الافكار ، تتراكم المخلوقات في دماغه الثائر فيوزعها على قماشته بسخاء روبنس ، وعمق رامبرانت، وعظمة المصورين البندقيين وغناهم . فهو مصور وموسيقي ، اديب مولع بالشعر ، بالفلسفة ، بالتاريخ السياسي والديني . ولهذا ، ليست كل لوحة من لوحاته تحفة فنية فحسب ، بل هي ظاهرة ارادة وايمان ، تهز القلب والخيال ، وتحرك في النفس ما يحركه الشعر ، والموسيقى ، والفلسفة .

لم تثمر حملات المدرسيين ، ولم يحرم دهلاكروا المساعدات الرسمية ، فابتاعت الحكومة كل لوحاته الكبيرة ، وعهدت اليه بصنع لوحات تاريخية وحربية وتزيين قاعة الملك ، فاشتغل فيها خمس عشرة سنة . وبالرغم من هندسة البناء غير المؤاتية ، تمكن دهلاكروا من القيام بعمله بمهارة فائقة . وقبل الانتهاء من هذه المجموعة العظيمة ، رغب اليه وزير الداخلية تزيين قاعة مكتبة البرلمان في قصر البوربون ، التي قال عنها احد النقاد الالمان « انها كنيسة سكستين فرنسا » . اما رائعته التزيينية فهي قاعة ابولون .

ان تزيين هذه القاعة كان قد عهد به الى « لوبرون » Le Brun

مصور لويس الرابع عشر المختار ، وهو الذي اراد ، تمجيداً لمولاه الملك الشمس ، ان يمثل انتصار ابولون في القسم الوسط ، وأعد للاقسام العشرة التالية مواضيع ملائمة . بيد أن سفره المعجل الى فرساي حال بينه وبين وضع التصاميم ، فنامت الفكرة نوماً طويلًا . وعندما عين شارل بلان مديراً للفنون الجميلة ، واراد تنفيذ مشروع قاعة ابولون ، كلف ده لاكروا خلق التصاميم مشترطاً عليه أبولون موضوعاً اساسياً . فاختار الفنان « أبولون قاهر الافعى بيتون » مع المواضيع التالية : « ديانا ، مركور ، مينرفا ، هرقل ، فولكن ، بوره ، ايريس والوصيفات » .

يقول روبو Robault ان ده لاكروا اظهر عبقرية مزدوجة بالخلق والتحقيق ، فسقف قاعة ابولون من اكمل الاعمال الفنية التي تخلد مجده على مرور الاجيال ، ولكن « مكسيم ده كان » تمنى ان يرجع ده لاكروا الى الاشتغال في الادب الذي يحبه ، والى الموسيقى التي خُلق بدون ريب لها . اما « جان روسو » فقد ذهب ابعد من ذلك ، وكتب مشيراً الى ظهور اعراض الخرف القاطعة على ده لاكروا .

ومما لا شك فيه ان الفوز العظيم الذي احرزه ده لاكروا بتزيين قاعة ابولون كان حدثاً عظيماً . وللمرة الاولى لاقت لوحات المعلم القديمة والحديثة غواة مشترين . وللمرة الاولى جاء

تجار الصور يطرقون باب محترفه . وبهذه المناسبة كتب ده لاكروا لى « مورو الاب » يقول : « انا لا افهم شيئاً من كل هـذا ، فقد وضح للغواة الآن ان لوحاتي فتحتْ في دنيـا التصوير فاقبلوا عليها بعد ان تجاهلوها مدة طويلة . »

ان صرخة الفوز المفاجىء الحلوة هذه ، اسمعنا اياها مرة اخرى على اثر بيع مجموعة من لوحاته ، كانت تملكها دوقة اورليـان ، وقد بلغ ثمنها يومئذ واحداً وعشرين الف فرنك .

حياة دهلاكروا الخاصة

تشهد رسائل دهلاكروا الخاصة بمحافظته على علاقاته الودية مع جميع اصدقائه . ومن خلالها كوّن شارل بيغو فكرة واضحة عن اخلاق المعلم فكتب يقول : « ان دهلاكروا احتفظ بلهجة المتواضع مع جميع اصدقائه ، فهو لم يكلم من علٍ ابسط البورجوازيين ، بالرغم من الشهرة التي وصل اليها . وعرف ان يحافظ على روح البساطة في رسائله منذ كان تلميذاً في المدرسة ، غنياً بالامل ، الى ان صار اسمه في جميع الافواه . وهو لم يفكر يوماً انه صنع من طينة غير طينة الناس . ولم يتخيل ان من واجبات القدر ان يخصه بميزات بخل بها على النكرات من البشر . ظل اصدقاؤه القدماء اصدقاء العمر ، وظل يأتيهم بيد مفتوحة ، قلبه عليها .

« لم تكن اخلاق دهلاكروا اقل عظمة من تصويره ، فهو مع

« ليست » من انبل النفوس الرومنطيقية . »

تحدث « تين » الى سيد ايطالي عن دهلاكروا ، قال :

كانت يده ترتجف ، وكان يعبّر عن احساسيسه بلطخ ملونة فسموه الملوّن ، وما كان اللون قط سوى وسيلة ينفذ بها الى لباب الانسان . لم يكن سعيداً كالبندقيين ، ولم تكتحل عيناه بمظاهر مغرية خلابة ، ولم تابه الاجساد البضة الضحاكة ، بل كان ينحدر الى اعماقنا ، فيرانا نحن ، كما نحن ، بغثانا وسخائنا ، بشدتنا وبؤسنا . وكان يفتش في كل مكان عن اسمى المآسي في بيرون ، ودنتي ، وتاس ، وشكسبير ، في الشرق ، في اليونان ، وبيننا وحوالينا ، في الحلم ، وفي التاريخ ، يستخلص العطف واليأس والحنان . دائماً احاسيس ، مؤلمة او مفرحة ، في الوانه البنفسجية الغريبة ، وفي غيومه النبيذية المشوشة بدخان فاحم ، في بحاره ، في سمواته المصفرة كبشرة مريض محموم . في جلده الآلهي المنوّر او سحبه السابحة كالحمام السماوي في منتهى المجد ، في اشكاله النحيلة المستطيلة ونسائه المرتعشات حياء ، واللواتي تضج فيهن عاصفة داخلية . في اجسامه المتلوية او المنتصبة بالاختطاف او التشنج ، بمخلوقاته الجامدة والحية — صورت كلها بحمية مرتجلة لا تعاند ، وبتآلف قوي مع الطبيعة المحيطة بها . انها تنسينا اخطاءه فنشعر انه يكشف لنا

عالماً جديداً ، وانه لسان هذا العالم وعيناه .

وكتب بول مانز يحدد نبوغ دهلاكروا ، قال : كان دهلاكروا يرى لوحته قبل تصويرها ، فالتأليف ، واللون ، والنور ، وكل ما هو غلاف للفكر ، كانت تتراءى له في وقت معاً . وتآلف الالوان كان بدء العمل ونهايته .

عاب عليه اناس ذوو طباع هادئة ، بعض الشذوذ في التأليف ، مع ضعف في الخطوط . فالفنان كانت تجتاحه الحمى فتهز يده ، ويصاب بقلة الجلد وقت التحقيق . واعراض كهذه لا تبدو على مصورين ليس لهم ما يعبّرون عنه ، فالعجز يعصمهم عن الخطأ ، وفقر تفكيرهم ضمانة . اما دهلاكروا فلم يتعرف الى هذا الهدوء الذي يُحسد عليه بعض الناس ، هدوء عامل يدهن باطمئنان مصراع باب ، فهو لم يلجم قريحته المهتاجة بشيء من الحذر . وعلى ذكر القريحة الهائجة اقول انني لم اؤمن مرة بما سموه المكنسة السكرى التي وضعها بعض النقاد بين انامله المرتجفة ، فاقلقتهم كما اقلقت بعض الهادئين من ذوي الدم البارد . فلدهلاكروا عجائب تزيينية غريبة ، ارادها فرآها ، وصوّرها ، فلندرسه من خلالها ومن خلال لوحاته المنوعة ، حتى في اصغر التصاميم التي افلتتها قريحته الهائجة ، فنراه يهتم قبل كل شيء بالتعبير عن الفكرة ، ثم بالعاطفة التي يريد ابرازها بعنف مؤثر . ومن هنا

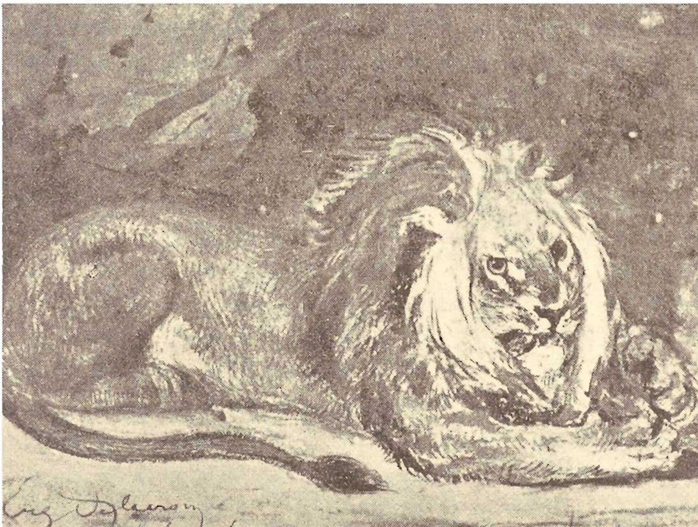
هـذا الارتجاف ، وليس كما قالوا ان الالهـام كان يأتيه فياضاً ، وفي ساعة هوس كان يترك ريشته السكرى تركض حرة . ان شيئاً من هذا لم يحدث ، ففي اشد ساعات الصراع مع الفكرة كان دهلاكروا يخضع لسلطان العقل . فاذا اطال عضواً اكثر من المألوف ، او لوى جسداً بشدة متزايدة ، فلأنه بحاجة هنا الى هذا الالتواء ، وهناك الى هذا الطول ، حتى يحصل في مجموع الخطوط هذه اللحمة وهـذا التآلف وهـذا التوازن التي كانت هدفه في الوانه . فلوحات دهلاكروا ملأى ، اريد ان اقول ان تآليفه متشابكة بحيث لا ترى العين فيها فراغاً ، وان اشخاصه المتموجـة تخضع دائماً لشريعة معقولة ، ومشيئة صريحـة ، لانه يرى الفعل في مجموع الصورة .

اما اللون وسحره فيها مالك لدهلاكروا . فمنذ نعومة اظفاره حلم باللون باحساس فطري ، وشعر بحاجة ملحة لان يعـاد الى المدرسة الفرنسـية المزية التي فقدتها ، ووفق بالاضافة لمواهبه الطبيعية الى معرفة في تنظيم الالوان هي نتيجة ملاحظات طويلة ، مرتكزة على اسس متينة ، استحق لاجلها التقريظ الذي خص به « اندريا دهلسارتو » الرسام الذي لا يخطىء . فيمكننا من ناحيـة اللون وتآلفه ان نلقب صاحب « عدل تراجان » بالملوِّن الذي لا يخطىء .

وبعد ان ينوه بول مانز بتأثير جريكو ، وبوننتون ، وبعض

المصورين الانكليز على لوحات دهلاكروا الشاب ، يرى بحق ان افريقيا هي التي اعطته نهائياً غنى الوانه المتعددة ، ونوع النور . ففي هذه الرحلة اللذيذة التي ذكرها طول العمر تعرّف الى اشخاص ذوي خلق لطيف امثال النماذج التي اتخذها في نساء الجزائر ، وعرس اليهود ، ومولاي عبد الرحمن ، وعشرين من الروائع . هناك رأى الطبيعة المشتعلة والسموات الزرقاء الشاسعة . ولم يهمل في اللوحات ذات الالوان الصارخة ، الانعكاسات التي تلطف من قوة اللون المحلي وتحفظ التوازن وتؤلف الموسيقى التي اراد . لم ينسَ نقاوة النهار الافريقي الذي عاش عدة شهور في جوه الدافىء الملوّن ، فنقل انواره الفاترة الى الداخل حيث يختبىء الظل السجين فيؤنس وحشته ، فيسمو دهلاكروا بهذا الى مستوى « رامبرانت » انبغ من عالج النور والظل .

ان الدروس التي تلقاها دهلاكروا من الطبيعة في رحلته الى مراكش والتي اختزنها قد ساعدته على تذويب الحقائق في شبه تأليف منوّر يغلفه الفكر ، وتشعله العاطفة . ولم يصور لوحة دون ان يضع فيها كل الصفات والخصائص التي نوّه بها « فرومنتان » . تخيل دهلاكروا للوحاته التي مثلها في الهواء الطلق ، نوعاً ناعماً من النور ، لطيفاً ، هو اشبه بنهار الجنات الوثنية ، فأخذ من الشرق الازرق السماوي القوي وظلاله الشاحبة ، وانصاف الظلال



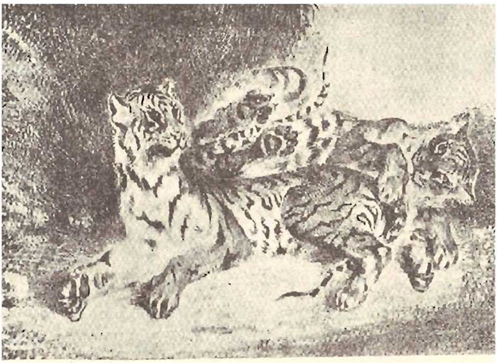
اسد يفترس ارنباً



ده لاكروا بريشة جورج صاند



جورج صاند بريشة ده لاكروا



نمرة تداعب صغيرها



الشاعر « لوتاس » في مستشفى المجاذيب



امرأة ينقض عليها نمر



انتحار اوفیلیا معشوقهٔ هملت



الشاعر لوتاس في سجنه

المينة ، وكان يغدق احياناً على مظلة مفتوحة اشياء مثـل قطع كئيبة من الشمس ، ثقيلة الوطأة تلطفها انصاف الانوار البـاردة ، انوار « فيرونيز » الفضية .

ان ده‌لاكروا صنو ل « فيرونيز » صاحب « عرس قانا » . وبينه وبين « تنتورتو » قرابة روحية ، فتنتورتو اول من جابه علمياً ، الازرق العميق الغني مع البرتقالي المنير ، والاحمر البرّاق مـع الاخضر القوي . وعلى الجمـلة بعث ده‌لاكروا ما علمته البندقية ، واهملته مدرسة دافيد .

كل شيء منظم في تلاوينه ، فالالوان تتنادى وتتجاذب ، ويتلاعب بعضها مع البعض الآخر ، كل لون حسب قوته وضعفه يستفز في الموضع اللازم وينكفىء او يختبىء او يتحاشى لقـاء مفاجئاً ، فيحصل بهذا على نتيجة من اروع النتائج . ولا اعطي على ذلك مثلًا واحداً ، فلوحاته امثال ناطقة ، كلها دروس وعبر .

وظلت تتتابع على صالون باريس سلسلة لوحات عبقريـة ، خالدة ، تهز اتباع الاكاديمية هزاً وتلقي على الملأ دروساً جديدة في التفكير ، والخلق ، والتكوين ، والتلوين .

ليس في تاريخ الفن دماغ اخصب واكرم من دماغ ده‌لاكروا . وقد يستحيل حصر كل ما خلّف من الآثار . انما يستفـاد من احصاء لروبو Robault انه ترك تسعة آلاف ومائة واربعين قطعة ، منها

٨٥٣ لوحة زيتية ، و١٥٢٥ باستل ومائيـة ، و٦٦٢٩ رسماً ، و٢٤ قطعة محفورة على النحاس ، و١٠٩ ليتوغرافية ، واكثر من ستين مجموعة رسم . وفي تاريخ الفنانين الاحياء ان التصاميم الجاهزة للعمل لا تكفيها حياة رجلين ، ومن التصاميم المتنوعـة ما لا يكفي لانجازه اربعماية سنة . وكان دهلاكروا يقول انه سيموت كلَباً ، كلما فكر ان الموت سيضع حداً لنشاطه ، ويحـول بينه وبين اتمام هذه المجموعة الهائلة من التصاميم .

ساءت صحته ، فسافر الى الريف ينشد الراحة . واصيب وهو مسافر بنزف رئوي ، اضطره للعـودة الى باريس ، حيث مات الساعة السابعة من صباح الخميس ١٣ آب ١٨٦٣ ، فطوى الموت وجهاً من انبل الوجوه ودماغاً من اخصب الادمغة .

هذه حياة واحد من انبغ المصورين العصريين . ولعله الوحيد الذي يمكنه الصمود عند المقابلة بينه وبين اعظم المعلمين ، امثال تيسيان ، وتنتورتو ، وروبنس ، ورافايل ، ورامبرانت ، وفلاسكز ، وما الوانه الخرساء الخـافتة القوية الجبارة وهـذا الشفق الازلي الحالم ، الا روح الرومنطيقية .

كان دهلاكروا يفتح العيون على عـوالم من الالوان فيسحرها : فهنا الوان عاصفة ، وهناك الالوان المهترئة التي انشدها بودلير وغناهـا ، وعرف دهلاكروا ان ينثرهـا في سماء عصر

سيطرت عليه احلام شوبنهور ونيتشه ، مازجاً الطبيعة بمآسي الانسانية .

دفن في مقبرة « بيرلاشيز » وشيعه باسم الاكاديمية بول هويه ، فقال عنه انه مفكر عميق ، ومصور ممتاز ، يحتل مكانته الى جانب فيرونيز ورامبرانت ، بين غوت وبيرون ، مثّل عصره وسيطر عليه ، وسيظل مجداً من امجاد فرنسا .

معلمون آخرون

وردت في سياق الكلام عن « ده‌لاكروا » اسماء فريق من مشاهير المصورين والنقاد ، فرأيت ان اخصهم ببحث مقتضب يلم بسيرهم ومميزاتهم الفنية تتميماً للفائدة .

رافايل Raphaêl . — اكثر المصورين شعبية . ولد في اوربن Urbin سنة ١٤٨٣ . تتلمذ على بيروجين Perugin . تمكن بذكائه ومرونته من ان يجمع الى شخصيته الناعمة ، فضائل اشهر الفنانين المعاصرين . استقدمه الى روما صديقه البنَّاء برامانتي ، وقدمه الى البابا يوليوس الثاني ، فاضحى مصوره المختار والمدير الفني للمدينة الخالدة .

كان شاعراً ، نحاتاً ، وبنَّاءً . واصبح الابن الحبيب للبابوية وللكنيسة . هو خالق العذارى الجميلات الناعمات ، ومدرسة اثينا واخواتها عشرات الروائع . حياته سلسلة من المباهج .

مات سنة ١٥٢٠ ، فحزنت عليه اوروبا ومشت روما باكية وراء نعشه .

ميكل انج Michel - Ange . — اكبر نحاتي عصر الانبعاث . ولد في فلورنسا سنة ١٤٧٥ . تتلمذ على غيرلندايو ، واتخذ روما مقراً له ، فجعلها محور الفن الايطالي في القرن السادس عشر . اعطى الفن نماذج من المخلوقات جديدة ، تبناها الفنانون الشباب شريعة لهم . شاعر ، نحات ، بنَّاء ومصور ، لكنه مصور

لا كالمصورين ، ما رأى اللون المحلي وما اكترث للانوار والظلال المستوحاة من الطبيعة ، بل خلق تماثيل ، وجدل عضلاتها جدلاً ، ووزعها كما شاءت عبقريته . لم يثر اهتمامه شيء سوى الانسان ، الانسان الذي حلم به ، الجبـار الذي تمخضت به مخيلته الجبـارة واثبتته يده في قبة كنيسة سكستين . انه لواحد من اكـبر رجال الفن في كل العصور .

مات سنة ١٥٦٤ .

تيسيان Titien . — رئيس المدرسة البندقية . ولد سنـة ١٤٧٧ . درس على جيورجيوني وساعده في عمله . ورث عنه اللون الغني وفاقه بغزارة الانتاج . ظل يتوغل في الفن بقدر ايغـاله في السنـين . اشتهر بلوحـاته الميثولوجية ، وامتـاز بالتعمق في نفسية الاشخـاص ، فصوره عن القنـاع البشري صفحات من التاريخ . رجاله ونساؤه مزيج غريب من جميـع الوان البشر ، مصهور بيد عبقرية ، تضيئه انوار داخلية ، فتفر منه الظلال وتختبىء وراءه .

مات حوالى سنة ١٥٧٦ .

اندريا داسارتو Del Sarto . — ولد سنة ١٤٨٦ . تتلمـذ على برتولوميو Bartoloméo ، وتأثر بليوناردو دهفنشي «خالق الجوكونده» وميكل انج . تتميز لوحاته بدقة الرسم وبالوان صافية وبراعة

في التأليف ، اسمه في تاريخ الفن صنو لأسماء كبـار المعلمين . اثارت لوحته « العشاء السري » اعجاب الفنانين بالرغم من ظهورها الى النور بعد لوحة دهفنشي .

مات سنة ١٥٣١ .

فيرونيز Veronèse . — ولد في فيرون سنـة ١٥٢٨ من عائلة عريقة في التصوير . عرف ان يصور بذخ البندقية وسحرها ، والوجوه الشقر المزدانة بالحلى والجواهر ، والعقود ، تحت انوار فضية ، نقية ، شفّافة . ويجمَع الجماهير ويحركها بين الغنج والغنى تتآلف الوانها وتتلاحم بسهولة وروعة وسخاء .

مات سنة ١٥٨٨ .

روبنس Rubens . — ولد سنة ١٥٧٧ . درس في انفرس . ثم سافر الى ايطاليا ومكث فيها ثماني سنوات . زار البندقية ، ومانتو ، وروما ، وجنوى . ثم رجع الى انفرس سنة ١٦٠٩ وأسس محترفه فيها ، وبدأ مزاولة فنه طائراً من فوز الي فوز . فهو واحـد من اشهر مصوري العـالم ، واشهرهم في زمانه على الاطلاق . هو السفير الموفد فوق العادة ، مصور الملوك وصفيهم وصديقهم . غني بالعقل والجمال والمال . يعمل تحت امرته جيش من المصورين . لم يعرف التاريخ خلّاقاً اسخى منه ، وراحة على بساطتها اغنى من راحته . فاليه ينتمي كل الملونين في العالم الحديث ومن خيراته

يغرفون .

مات سنة ١٦٤٠ .

رامبرانت Rembrandt . — ولد سنة ١٦٠٦ في ليد . ولما شبَّ سافر الى امستردام واستقرَّ فيها . مشى نبوغه مشية منتظمة ، فلم يتأثر بأي مدرسة من المدارس المتعددة المنتشرة في اوروبا . تدرَّج في الظلال من الاسود العميق الى اسطع الانوار . ولوحاته بمجموعها نيِّرة شفافة . وهو مثل ميكل انج ، خلق جبابرة يأتمرون امره ويخضعون لتحكيم نبوغه ، وخلق لهم نوراً معقولاً دون ان يكون حقيقياً ، هو نور من ذهب سائل تسبح الطبيعة فيه وتستحم ، لم يعطَ واحد من المصورين ما اعطيه من معرفة باشعاع الابيض على الاسود .

مات سنة ١٦٦٩ .

واتو Watteau . — المعلم الاكبر للمدرسة اللطيفة المحبوبة . ولد سنة ١٦٨٤ في مدينة فلانسين Valenciennes وفتح عينيه فيها على لوحات روبنس ، فتملكته الوانها الغنية الشفافة . وعندما امَّ باريس ، شاهد في قصر لوكسمبورغ لوحات معلم انفرس ، وتعرف الى المصور جيلّو الخفيف الروح . ومن هذين الاثنين استوحى طريق المستقبل ، ولكن الروح الشعري الناعم الذي كان ينعكس على لوحاته ، والمسحة الرشيقة التي كان يخصها بها ، هما من مميزات فنه الفريدة .

اتهمه بعض نقاد عصره بخفته السطحيـة ورؤيته العالم على مسرح اوبرا ·

مات في باريس سنة ١٧٢١ ·

دافيد David · — ولد في باريس سنـة ١٧٤٨ · تتلمذ على فيان Vien ، متبعـاً نصيحة المصور بوشه صديق العائلة · نال جائزة روما سنة ١٧٧٤ · فسافر اليها دارساً وانتمى الى جمعية علمية ثقافية · ثم انتقل الى نابولي حيث انصب على درس الروائع التي كشفتها حفريات هركولانوم وبومبايي ، فتولد في نفسه بغض للتصوير العصري او التصوير الرائج · ثم اعتنق المبادىء الثورية ودخل في الكونفنسيون · وبالسلطتين السياسية والفنية تمكن من توجيه فن عصره وسيطر على الفن الفرنسي في القرن التاسع عشر ، ووجّه المدرسة الفرنسية توجيهاً جديداً بتصويره الموضوع من خلال الجمال اليوناني مع مسحة ثقافية ·

تدنت طريقته بعد موته بواسطة تلاميذه الى الطريقـة الاكاديمية الباردة الجافة ·

مات في بروكسل سنة ١٨٢٥ ·

جيروده Girodet · — ولد في مونتـارجيس Montargis سنة ١٧٦٧ · تلميـذ دافيد · نال جائزة رومـا سنة ١٧٨٩ · ترك روما مرغماً بسبب تدابير سياسية ضد الفرنسيين ، فمر عـلى

نابولي وجنوى قبل رجوعه الى فرنسا . حصل على جائزة التصوير التاريخي بلوحته « الطوفان » التي زاحمت لوحة استاذه دافيد Les Sabines . فكر مثقف ، احب الشعر وجرب ان يجمع بين المذهبين الدافيدي والرومنطيقي فلم يفلح .

مات سنة ١٨٢٤ .

انغر Ingres . — زعيم المدرسة التي تنتسب اليه . ولد في مونتوبان سنة ١٧٨٠ من اب نحات وبنّاء وموسيقي ومصور . سافر الى باريس ، ودخل محترف دافيد . نال جائزة روما . تأثر برافايل .

ان اجمل الآثار التي خلفها انغر هي صور الاشخاص المصنوعة بقلم رصاصي . عاش بين روما وباريس . سمي مديراً للاكاديمية الفرنسية في روما . سحرته الخطوط بدقائقها ومعانيها ، فاهمل اللون .

مات في باريس سنة ١٨٦٧ .

شاردان Chardin . — ولد سنة ١٦٩٩ . ابرز مزاياه رؤية الاشياء تحت ضوء طبيعي بعين صافية ومادة سخية واحساس شعري عميق . وهو القائل : طاولة مطبخ ، وتفاحة ، لا شيء سوى تفاحة وروح ترفرف حولها ، وهذا كل شيء .

البارون جيرار Baron Gérard . — ولد في روما سنة ١٧٧٠ .

هبط باريس وهو في الثانية عشرة من سنيه . مرّ على مصورين اثنين قبل دخوله محترف دافيد . استرعت لوحاتـه في الصالون انظار العائلة المالكة ونبهتها الى موهبته الارستوقراطية ، فاصطفته مصوراً خاصاً لها ولجميع الاشراف .

هو واحد من انبل المصورين الذين انجبتهم مدرسة دافيـد ، واغناهم الواناً .

مات في باريس سنة ١٨٣٧ .

البارون غرو Baron Gros . — ولد في باريس سنة ١٧٧١ . دخل محترف دافيد وهو في الرابعة عشرة . لم ينجح في المسابقـة لجائزة روما ، ولكنه سافر الى ايطاليـا ، ماراً بفلورنسا وجنوى حيث تعرّف الى جوزفين بونابرت ، فوضعته تحت رعايتها وقدمته الى زوجها الجنرال الذي قاده مع جيوشه الى الخلود .

مُلهم المدرسة الرومنطيقية ، واشد المدافعين عن مدرسة دافيد . انتُقد انتقاداً لاذعاً دفعه الى اليأس فالانتحار .

طبيعة جبـارة حرمت من ارادة قوية لتسييرها . مجدد دون ان يدري . كتب اجمل صفحات الملاحم النابوليونية واروعها ، ووضع اسس اللوحات الحربيـة الحديثة . شق الطريق وعبّدهـا امام جريكو ودهلاكروا .

مات سنة ١٨٣٥ .

جريكو Gericault . — فنان مشتعل الاحساس ، عميق التفكير ، قوي الرسم . ولد في روان سنة ١٧٩١ . درس على كارل فرنه وغيران . سافر الى ايطاليا سنة ١٨١٧ . درس التماثيل اليونانية . تتلمذ على روائع ميكل انج . وعند رجوعه الى باريس صور لوحته « خشبة المادوز » فجاءت نموذجاً صارخاً لجرأته في الرسم ، وكانت حجر الزاوية في بناء الفن الرومنطيقي . سافر الى انكلترا مسحوراً بالوان المدرسة الانكليزية والطريقة المائية . لاقت لوحاته من كل نوع اعجاباً عظيماً . خيَّال ماهر .

مات في باريس متأثراً بسقطة عن جواده سنة ١٨٢٤ .

بول هويه Paul Huet . — ولد في باريس سنة ١٨٠٤ . مرّ مروراً سريعاً على محترفات بولي Paulis وغيران وغرو ، فانتهى الى الطبيعة معلمه الاكبر .

غني الالوان ، شاعر . عرض في صالون باريس لوحات اثارت اعجاب كبار الفنانين بغنى مادتها . هو واحد من مؤسسي المدرسة الحديثة لتصوير المناظر الطبيعية Paysages .

مات في باريس سنة ١٨٦٩ .

ماريلا Marilhat . — ولد في فرتيزون Vertaizon سنة ١٨١١ . هبط باريس ومرّ على محترف روكبلان Roqueplan . وتعرّف في الصالون الى بارون الماني فاغراه بالسفر واياه الى الشرق ،

فرافقه ماراً باليونان ولبنان وسوريا وفلسطين ومصر حيث اقام مدة صور في خلالها محمد علي باشا . ثم ساءت صحته فرجع الى باريس على ظهر الباخرة التي حملت المسلة التاريخية L'obélisque فحملت عيناه الى الغرب انوار الشرق ونعومة هوائه .

مات في فرتيزون سنة ١٨٤٧ .

شاسيريو Chassériau . — ولد سنة ١٨٢٦ في ساماما Samama بورتوريكا من اب فرنسي وام وطنية Créole . دخل محترف انغر في العاشرة من عمره ، فاصبح من اصدقائه ، وآمن انغر بمواهبه ايماناً كاملًا وفاخر به معتزاً اذ كان في كل مناسبة يردد ان شاسيريو هو نابوليون التصوير . سافر الى روما بعد تعيين استاذه مديراً لاكاديميتها ، ولكنهما لم يتفاهما هناك طويلًا : اراد شاسيريو ان يوفق بين رسم انغر والوان دهلاكروا فحقد عليه معلمه . ترك روما ورجع الى باريس حيث تعرّف الى خليفة قسطنطين Califé de Constantin فاغراه هذا بالسفر الى الجزائر ، وهناك عاوده حنينه الاول ، فحقق لوحات غنية اللون قوية الرسم ، فيها كثير من حلمه المرجّى ، ولوحات تزيينية وافرة الجمال .

مات في باريس سنة ١٨٥٦ .

فرومنتان Fromentin . — ولد في لاروشل La Rochelle سنة ١٨٢٠ وسافر شاباً الى الجزائر ، فالتقط كثيراً من التأثرات

مخطوطة ومرسومة . لوحاته ناعمة الالوان ، صافية الانسجام . له في عالم الادب منزلة جد محترمة . فأدبه يزخر بالحياة الملوّنة ، وينم عن اطلاع واسع ومعرفة عميقة .

مات في لاروشل سنة ١٨٧٦ .

ليست Liszt . — ولد سنة ١٨١١ في المجر . موسيقي . مؤلف رومنطيقي النزعة ، مشتعل العاطفة ، قوي الاحساس ، غريب الاطوار والنظريات ، ذو حيوية فياضة ولباقة في العزف لا تجارى .

مات سنة ١٨٨٦ .

ادوار مانه Manet . — ولد في باريس سنة ١٨٣٢ . مر على محترف توماس كوتور Couture . ثار على الطريقة المتبعة في التعليم واعلن انه يريد ان يصور كما يرى هو لا مثلما يرى الناس . سافر الى هولندا حيث تعرَّف الى لوحات فرنزهاس واولع بها كثيراً . ثم تنقل بين المانيا وايطاليا واسبانيا حيث درس فلاسكز ، واستدل غويا على طريقه . رفضت لوحاته في الصالون مراراً . ولكنه تابع اسلوبه الخاص الذي قاده الى الخلود ، وشق به الطريق الى التأثريين . فاستحق من بودلير لقب مطهِّر التصوير .

مات سنة ١٨٨٣ .

بوننغتون Bonington . — ولد سنة ١٨٠١ . مصور انكليزي

حساس . درس وعاش في باريس . تتلمذ على غرو ، وتعرّف الى ده لاكروا وجريكو . هو واحد من الاوائل الذين اقدموا على التصوير في الهواء الطلق . تتميز لوحاته بسموات غائمة ، ومائياته بالوان غنية شفافة .

مات سنة ١٨٢٨ .

رودان Rodin . — ولد سنة ١٨٤٠ . اكبر النحاتين بعد ميكل انج ، وواحد من مفاخر فرنسا . سافر الى بلجيكا ثم الى ايطاليا فدرس دوناتلّو وميكل انج ورجع الى باريس ماراً بفرنسا الشمالية ، دارساً كنائسها القوطيـة . ثم استقر في باريس يحيي الرخام والبرونز غائصاً الى اعماق المآسي الانسانية ، ومنشداً ارفع اناشيد الحب .

مات في ميدون سنة ١٩١٧ .

غيومه Guillomet . — مصور فرنسي ، ولد في باريس سنة ١٨٤٠ . سافر الى الجزائر فخلبه نورها وترك للفن الفرنسي تحفاً كلها اناشيد من النور الملون الغني ، ودروساً قيمة عن نفسية الانسان الافريقي وسمواته الزرقاء القاسية .

مات سنة ١٨٨٧ .

بينار A. Besnard . — ولد في باريس سنـة ١٨٤٩ . نال جائزة روما سنة ١٨٧٤ . سافر الى لوندرا ، ثم الى الهند ورجع

منها الى باريس حاملا لوحاته الرائعة « الهند بلون النار » . مدير الاكاديمية الفرنسية في روما . كاتب جذاب احرز احترام المدرسيين والثائرين على السواء . عضو اكاديمية الفنون الجميلة ، والاكاديمية الفرنسية . حامل وسام جوقة الشرف برتبة ضابط كبير ، مدير مدرسة الفنون الجميلة في باريس .

مات سنة ١٩٣٤ .

تين Taine . — فيلسوف ومؤرخ وناقد . جرّب ان يطبق نظرية العلوم الطبيعية على مختلف نتاج الفكر البشري . ولد في فوزيه Vouziers سنة ١٨٢٨ ومات فيها سنة ١٨٩٣ .

بول مانز Mantz . — ناقد فني مرهف الحس واسع الثقافة . ولد في بوردو سنة ١٨٢١ .

مات سنة ١٨٩٥ .

الفهرست

الصفحة

انتهى طبع هذا الكتاب
على مطابع الاتحاد – بيروت
في ٢٧ شبــاط ١٩٤٦

من

منشورات « دار المكشوف »

الاعدام : خليل تقي الدين

خواطر ساذج : « »

الرغيف : توفيق يوسف عواد

كان ما كان : ميخائيل نعيمه

على المنبر : نقولا فياض

الباب المرصود : عمر فاخوري

روابط الفكر والروح : الياس ابوشبكه

وهل يخفى القمر : رئيف خوري

الفكر العربي الحديث : « »

الوعي القومي : قسطنطين زريق

معارك العرب : بطرس البستاني

الشعراء الفرسان : « »

نحن في افريقية : كامل مروه

نقد الشعر : نسيب عازار

الاغوار : احمد الصافي النجفي

الدراسة الادبية : رئيف خوري

تاريخ جرح : فؤاد الشائب

اساطير شرقية : كرم البستاني

اديب في السوق : عمر فاخوري

الحقيقة اللبنانية : « »

الى الابد : الياس ابو شبكه

وجوه وحكايات : مارون عبود

زوبعة الدهور : « »

من اعماق الجبل : صلاح لبكي

الرؤوس : مارون عبود

آفاق : سليم حيدر

عمر افندي : لطفي حيدر

محاولات في فهم الادب « »

ليلة القدر : احمد مكي

النداء البعيد : « »

مواعيد : صلاح لبكي

العراق بين انقلابين : عبد الفتاح اليافي

الفصول الاربعة : عمر فاخوري

نداء القلب : الياس ابو شبكه

الالحان : « »

معالم الوعي القومي : رئيف خوري

مجوسي في الجنة : رئيف خوري

نداء المجهول : محمود تيمور

حورية البحر : « »

الخاتم السحري : محمد كزما وهاشم الامين

الفوضى العالمية : الاب يوحنا مارون

في قصور الملوك : قدري قلعجي

اساطير الامم : « »

المجتمع الافضل : اندره فيكتور

فرنسا المحاربة : اندره موريز

نحو الجيش المحترف : شارل ديغول

تلك آثارنا : جان رونسان

البرلمان الامثل : رشدي المعلوف

في قصور الخلفاء : صلاح الدين المنجد

الاشتراكية العملية : ابراهيم حداد

لبنان في العالم : جورج معنّق

قصر الحير الغربي : دانيال شلومبرجه